موعد في الليل

هذه قصة مزحة لم تعد فى أول أمرها أن تكون أكذوبة قصد بها التفكه والتندر .. ولكن الظروف دفعتها أمامها ونفخت فيها فانتفخت وتضخمت وظلت تتسلل بها الحوادث حتى انتهى بها الأمر فصارت قصة هى أبعد ما تكون عن أذهان أصحاب المزحة .. عندما اختلقوها فى بادىء الأمر .

رأيت الفتى - بطل المزحة أو بطل القصة - أول مرة فى ذلك النادى الذى اعتدت أن أقضى به سويعات مرحة ضاحكة مع بعض الأصدقاء حيث أنقل البصر بين وجوه الحسان اللاتى تناثرن هنا وهناك .. وكان يجلس فى ركن من أركان الصالة الفسيحة المزدحمة وقد دفن رأسه فى كتاب بيده لايحول عنه بصره .

وكان الفتى أقرب الى الدمامة .. بوجهه الأصفر النحيل وأنفه الحاد الشبيه بمنقار البجعة ، وبتلك وبتلك الأسنان الصفراء البارزة المدبية . وذلك المنظار السميك الذى يكاد يلمس صفحات الكتاب الذى فى يده .. وتعودت أن أراه بعد ذلك فى نفس المكان وفى نفس

الوضع لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا ينطق بحرف .. ولايرفع رأسه عن صفحات الكتاب .. وكنت أحس له فى نفسى شيئا من النفور .. وأغلب ظنى أن هذا هو الشعور الذى كان فى نفس كل من يراه .. ولكن حدث ذات يوم أننى وجدت نفسى مضطرا الى الجلوس اليه ومحادثته .. فقد كانت القاعة خلوا الا منه ومنى .. ووجدته يبتسم لى ابتسامة خفيفة فاضطررت الى مجاذبته أطراف الحديث .. وأعجبنى حديث الفتى ، فقد كان به رقة وطلاوة ، وكان صوته ذا رنة محببة بينى وبينه .. والواقع أن الفتى كان يختلف عن مظهره كل الاختلاف .. فقد كان رقيقا شاعرى النفس ، حلو الحديث ، وان كان أكثر ما يعينه هو فرط حيائه لا تكاد تتعدى تلك الصفحات من مئات الكتب التى يغرق فيها رأسه .

وبدأ أصدقائى الخبثاء يتخذون من الفتى ملهاة لهم ، ومسلاة يتندرون به فيما بينهم .. وانتهى بهم الأمر أن يدبروا مؤامراتهم الماجنة .. والتى لم أعلم بحقيقتها الا فيما بعد .. والا لوضعت حدا لمزحتهم الشائكة وخاصة مع مثل هذا الفتى الحى .. والذى ما أظنه قد جلس فى حياته الى امرأة قط .. أراد الأشقياء أن يعبثوا بالفتى فاتفقوا مع فتاة من صديقاتهم أن تكتب له خطاب غرام تصف فيه مبلغ اعجابها به ولهفتها عليه .. وتقول (أن حبها قد بدأ منذ رأته جالسا فى صمته ووجدته بعيدا عن الناس ولهوهم ، ومجونهم .. وأنها لم تتمالك نفسها من الإعجاب بسيماء النبل البادية عليه) ! ثم ينتهى الخطاب بتحديد لقاء فى الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة فى ملتقى العشاق بإحدى الضواحى النائية .. ثم تضيف الى ذلك ملحوظة جاء فيها : (يمكنك

معرفتى بعينى السوداوين الحزينتين وبمعطفى الأحمر ووردة بيضاء سأمسك بها فى يدى) .

ويستطيع المرء أن يدرك وقع مثل هذا الخطاب فى نفس الفتى الذى يذوب خجلا وحياء .. والذى ما خطر له أن فتاة يمكن أن تعشقه ، بل الذى لايذكر أن فتاة نظرت اليه نظرتين متتاليتين .

ويمسك الفتى بالخطاب ويخلع منظاره ليمسحه جيدا .. ثم يأخذ فى تلاوته مثنى وثلاث ورباع ، والأشقياء على مقربة منه يسترقون النظر اليه ويضعون أكفهم على أفواههم خشية أن تفلت منها الضحكات التى تعتمل فى صدورهم ! ثم يطبق الفتى الخطاب فى رفق وعناية ويضعه فى جيبه ثم يروح فى شبه ذهول .. ولاشك أن الفتى قد قضى يومه قلقا حائرا فقد لقيته وفى عينيه نظرات غريبة ثم انتحى ناحية بعيدة ، ودفع الىّ بالخطاب ووجهه يصطبغ بلون الأرجوان .. وطلب منى قراءته ثم راح يرمقنى فى صمت فلما انتهيت من قراءته سألنى فى صوت خجول :

– يخيل الىّ أنى أعرفها .. وأحس بلهفة الى الذهاب للقائها .. ولكنى لا أجد فى نفسى الجرأة الكافية .

فقلت :

– الأمر لايحتاج الى جرأة أو شجاعة .. فكل ما بنفسك من حياء سيذوب بمجرد لقائك اياها .

ولم أكن أعلم وقتئذ أن فى الأمر مزحة مدبرة .. والا لأجبته بغير ذلك .. ولاطلعته على الحقيقة حتى لا أتركه ألعوبة بين أيدى هؤلاء

الماجنين العابثين .. ولكنني كنت أظن مثله أن الأمر لايعدو الحقيقة فقد كان الخطاب مكتوبا بأسلوب متزن معقول لايكاد يميز المرء فيه هزلا أو مزاحا حتى جاء يوم الجمعة .. فعلمت من أحد الأشقياء الذين دبروا المؤامرة أن الخطاب أكذوبة أريد بها السخرية من الفتى واخراجه من صمته ووقاره .

وشعرت بالأسى يتملكني فأسرعت الى داره لأنبئه بحقيقة الأمر .. ولكن ما أن وقع بصري عليه حتى وجدته قد تأنق وتزين والعطر يفوح منه ورأيت وردة حمراء تتربع على صدره .. ولمست الأمل يترقرق في وجهه .. كل ذلك جعلني أجزع من ذكر الحقيقة التي ستهدم تلك القصور الشامخة التي شادها الفتى في رأسه فألقيت اليه ببضع كلمات تافهة وغادرته بعد ان وعدته بالعودة اليه بعد أن ينتهي من موعده .

وعدت اليه في العاشرة .. فقد أحسست أن من واجبي أن أرفه عنه وأن أزيل ما علق بنفسه من آثار خيبة الأمل .. فقد تخيلته يحملق بمنظاره ومنقاره في كل امرأة تمر به دون أن تعيره احداهن أدنى التفاتة .. ولم يعد الفتى الى داره حتى الحادية عشرة ، عندما رأيته قد أقبل حزينا ملتاعا وقد بدا عليه الإعياء .. فألقى بنفسه على مقعد وقال كمن يحدث نفسه :

– انها لم تأت بعد .

– ربما قد عاقها مرض .. أو حدث لها طارىء منعها من الحضور .

ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أجيبه هذه الإجابة التى أعادت الأمل الى نفسه .. وجعلته يتعلق مرة أخرى بخيوط الوهم .. فقد أجاب :

– نعم .. لابد أن يكون هناك ما منعها .. ولابد أنها ستكتب الىّ مرة أخرى لتشرح ما حدث .. كم أخشى أن يكون قد مسها مكروه أو أصابها سوء .

فلاشك أنها كانت تنوى الحضور والا لما كتبت تقول ذلك .

وفى الواقع .. كان يجب علىّ أن أفضى اليه بالحقيقة كلها فى ذلك الوقت ، ولكنى لم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لذلك ، ولم أرد أن أحمل الفتى خيبة فوق خيبة .. وفضلت أن أترك للظروف تدبير أمره وللزمن أن يبرئه مما به ، وينسيه ذلك الخطاب وصاحبته .

ولشد ما أخطأت فى ظنى .. فلم تزد الأيام الفتى الا استعارا .. لقد استمر يذهب كل مساء فى الموعد المضروب الى مكان اللقاء فلا يعود الا فى منتصف الليل .

وكان علىّ أن أفعل شيئا وقد أوشك الفتى على الجنون ، ورأيت من العبث أن أخبره أن المسأله كلها هزل فى هزل ، فقد كان من العسير على المرء أن ينتزع الفتاة الوهمية من رأس الفتى وأن يقنعه أنها كائن لا وجود له الا فى مخيلته وفى سطور الخطاب الذى خدع به .. وعلى ذلك فلم يكن أمامى الا حل واحد ، وهو أن أوجد له الفتاة فعلا .. وأن أحوّلها من الوهم لتكون حقيقة ثابتة .. فأجعلها تلقاه حتى يهدأ باله وتطمئن نفسه .. ثم تحاول هى بعد ذلك التخلص منه بحكمة ومهارة .. وكان خير من أستعين به فى هذه المشكلة صديق اشتهر

بوسامته وكثرة صديقاته ، ولا تكاد تخلو مائدته من عشرات الفاتنات الساحرات بين الكئوس والضحكات .. فذهبت اليه وقصصت عليه القصة ، وسألته لو أمكن أن يتفق مع احدى صاحباته على أن تلقى الفتى مرة أو مرتين فتتلطف معه بعض الشيء ثم تفهمه أنها لن تستطيع لقاءه بعد ذلك لأنها سترحل بعيدا لعذر تنتحله .. وأخبرته أن من الخير ألا تكون الفتاة مفرطة في الحسن حتى يسهل على الفتى أن ينساها بعد ذلك .

وفي اليوم التالي أخبرني صاحبي أنه استطاع أن يقنع احداهن بلقاء الفتى وهي – وان كانت بارعة الحسن – الا أنها أيضا خبيرة بالنفوس داهية ماكرة ، تستطيع أن تعيد الفتى الى نفسه من اللقاء الأول وتجعله يندم على لقائها وعلى التفكير فيها .

* * *

وكنت جالسا مع الفتى عندما جاء الخطاب الثاني .. وأبصرت به يفضه بيد ترتجف ويبدأ قراءته وقد تصاعد الدم الى وجهه .. ثم رأيته يمد يده اليّ بالخطاب ويقول في صوت هامس :

– ألم أخبرك أنها لابد أن تكون مريضة ؟

وأمسكت بالخطاب ، ولم يكن بي من حاجة الى قراءته فقد كنت أعلم ما به .

ولكني تظاهرت بالقراءة .. لقد كان بالخطاب اعتذار بالمرض وموعد للقاء في نفس المكان وفي نفس الساعة .. وذهب الفتى للموعد وانتظرت أن يؤوب سريعا ، ولكن غيبته طالت حتى خشيت أن يكون

قد مسه سوء أو يكون قد ألقى بنفسه فى النهر ومات منتحرا .. ولقيته فى اليوم التالى فأقبل علىّ باسما متهللا .. وبدأ يحدثنى عن لقاء الأمس فوصف لى كيف أقبلت عليه الفتاة بقامتها الفارغة ومعطفها الأحمر ووردتها البيضاء .. تماما كما حدثته فى خطابها لاتكاد تختلف فى شىء سوى أن عينيها السوداوين لم تكونا حزينتين بل كانتا تبرقان بالمرح وتشعان بالسرور .

– انها نشوة أثارتها فى نفسى .. ما ظننت قبل أن أراها أن من الممكن لإنسان على هذه الأرض الشقية أن يسعد مثلما سعدت .. لقد أقبلت علىّ هاشة باشة كأن بيننا قديم صحبة .. والواقع أننى أحسست أن روحينا قد التقيتا قبل الأمس مئات المرات ! وأمسكت بيدها وانتحينا ناحية هادئة على الشاطىء وطلبت منى الفتاة أن أحدثها عن نفسى ، فرأيت لسانى ينطلق فى الحديث ويروى لها كل ماوعته الذاكرة من الشعر والقصص فأطربها الحديث ، ورحنا نحن الاثنين فى نشوة .. وأنا أحدثها بلسانى وهى تجيب بعينيها .

وصمت الفتى برهة ثم عاود الحديث :

– سنلتقى اليوم مرة أخرى .. وقد تركت لى عنوانها حتى أستطيع الاتصال بها اذا ألمّ بها سوء .

ويستطيع المرء أن يتصوّر مدى ما أصابنى من الدهشة والذهول عندما سمعت حديث الفتى .. وشعرت أن المشكلة تزداد تعقدا وأن الفتاة الحمقاء قد ذهبت لتزيد الفتى لهيبا بدلا من أن تطفىء لهيبه !

ترى كيف تستطيع أن تخلص نفسها منه بعد ذلك ؟ .. وذهبت الى صاحب الفتاة وأنا حانق ثائر .. فلقينى بابتسامة ساخرة وقال :

– أهذا هو صاحبك الذى تخشى عليه ؟ كان خيرا لك أن تخشى منه لا عليه .. اياك أن تعود لاقتراض صاحباتى لأصدقائك فانهم محتالون لايردون القرض .

وتملكتنى الدهشة عندما سمعت أن الفتاة التى ذهبت لتمثل دورها القصير لم تجد الفتى قبيحا كما تخيلته بل وجدته رقيقا مهذبا ، واستطاع أن يأسرها بسحر حديثه وعذب صوته .. حتى لقد أقسمت أنها تستطيع أن تستمع اليه طول العمر دون أن يدركها ملل أو سأم .

ومرت الأيام فاذا بالمزحة قد انقلبت فصارت غراما فياضا وهوى جارفا ، وكاد الأمر ينتهى بها فتصبح زواجا سعيدا لولا أن حدث مالم أكن أتوقع حدوثه قط .

فى ذات يوم جلس الفتى يتحدث مع أحد الأصدقاء الذين دبروا المزحة فى أول الأمر . ولا أدرى أى شيطان دفع الخبيث الى أن يفضى الى الفتى بقصة الخطاب من أولها الى آخرها .. وأصيب الفتى بصدمة أخرى عنيفة قاسية أفقدته رشده .. فقد رأى أنه لايعدو أن يكون فى كل هذه الأحلام العذبة ألعوبة وسخرية .. وسحق قلبه أن يكون كل ذلك الهوى الجارف من الفتاة محض تمثيل هازل ماجن .

ولقينى الفتى بوجه متجهم عابث ، وهيكل محطم مهدم ، واعترفت له بكل ما حدث .. ولكنى أخبرته أن شيئا واحدا مما حدث لم يكن به أى هزل أو مجون ، وذلك هو حب الفتاة . وحاولت أن أفهمه حقيقة ما حدث ، ولكنه أشاح عنى بوجهه وانصرف كأنه شبح أو خيال ، وشعرت أن رأسى يكاد أن ينفجر .. وخشيت على الفتى أن يودى به وهم كاذب .. ولم أجد خيرا من أن أسرع الى الفتاة فأنبئها

بما حدث حتى تسرع اليه فتقنعه بأن حبها له حقيقة لا خداع .. ولقيت الفتاة وهرعت واياها الى دار الفتى واقتحمنا حجرته لننقذه من شر أوهامه .. ولكننا وجدنا أننا قد تأخرنا قليلا .. فقد أنقذ الفتى نفسه بنفسه .. لقد انتحر المسكين ، وتركت الفتاة ترتمى باكية أمام الفتى المسجى على فراشه وغادرت الدار .. فقد أحسست أننى أوشك على الاختناق .

يا للسخرية ! هذا الفتى الذى كنت أعالجه بالوهم الكاذب قد مات بوهم كاذب .

ترى لو كان يعرف صاحب المزحة أن مزحته ستنتهى بمثل ما انتهت اليه .. أما كان يشفق على الفتى منها ويكفى الناس شر المزاح ؟

* * *